

الفصل الرابع

مقدمات معركة بلاط الشهداء

Poitiers بواتيه

مقدمات معركة بلاط الشهداء (يوآيه Poitiers)

كان استدعاء موسى بن نصير إلى دمشق وقد اجتاز جبال اليرت الفاصله بين أسبانيا وبين بلاد الغال La Gaule التي عرفت حينذاك بحركة الفتح التي كان القائد العربي مصمما أن يمضى بها وراء الجبال وسواء أراد تحقيق مشروعه العسكري الكبير في اجتياح القارة الأوروبية والوصول إلى ضفاف البسفور حيث القسطنطينية أم إنه أراد تأمين الحدود الدفاعية لاماراته الجديدة في الجنوب الغربي لاوروبا فإن هذا القائد بما يتمتع به من عبقرية عسكرية كان مستمرا في تقدمه وانتصاراته حتى دعوة الخلافه له بالتوقف ، لكن غياب القيادات العسكرية صانعه الانتصارات فى أسبانيا لم يكن ليؤدى إلى تجميد الطموح الإسلامى وراء جبال البرثيه فى قلب مملكة الفرنجة المجاورة ولاسيما أن الظروف كانت ملائمة للمضي فى المخطط التوسعى ولم يكن من سبب يدعو إلى هذا الحد كذلك فإن ممارسات القواد فى الأندلس لم تكن نابعة من قرارات الخليفه بقدر ما ارتبطت بحتميات الواقع الجديد الذى فرضته الإستراتيجيه العسكريه للموقف المائل أمام قاده البلاد وربما لا تتفق مع أفكار الخليفة الأموى فى عاصمته البعيدة ولاسيما لوآيحت الفرصه لموسى بن نصير ان يتابع عملياته العسكريه بعد وصوله إلى إقليم اراغون فى الشمال الشرقى لآسبانيا هل كانت فرنسا ستصمد أمام جيوشة أم إنها تلافى مصير دولة القوط لكن النتيجة المتوقعه كانت ستكون بالايجاب لاسيما أن أوضاع تلك الدولة المجاورة فى تلك الفترة لم تكن تختلف كثيرا فى أحوالها عن أسبانيا القوطية عشيه الفتح الإسلامى لها .

ذلك لان الفترة السابقة لفتح الأندلس بقليل كانت بلاد الفرنجة تشهد ضعف سلطة الملوك وازياد قوه النبلاء فى الدولة واتساع سلطة الكنسيه وكثرة ثرواتها وإنغماسها فى السياسه الدينويه وتدهور السلطه العامه واندلاع الحروب الداخليه والمنازعات الداخليه التى عدت قاعده عامه فى البلاد ثم اصبح تاريخ الفرنجة بعد ذلك حتى ظهور شارل مارتل عام ٧١٤م يمثل تاريخ النزاع بين العائلات فى (الستريا واستراسيا) للفوز بمركز رئيس البلاط وكان الغاليون أو الفرنجة سكان تلك

المنطقة الواسعة الممتدة بين اللوار غربا ومن المانيا الحاليه شرقا هم فى الاصل كالفوط الغربيين أحد الموجات الجرمانية من الأسره الميروفنجيه التى استت حكم البلاد منذ القرن الخامس الميلادى وقد جرى تقسيم تلك الدولة إلى ثلاثة أقسام رئيسيه هي اواستراليا Austrasia نوستريا Naustria برغنديه Burgundia عدا الاقطاعات بين الصغيره الأخرى وكثيرا ماجرى صراع بين الأخوة بينما انهارت سلطه الملوك تماما لكنه فى أواخر القرن السابع الميلادى كانت اماره اوستراسياس قد حارت الغلبه فى النهايه من ذلك الصراع وكان ذلك يرجع فى الحقيقه الى رئيس بلاطها الذى كان بوسعه ان يهزم من الاتباع مايزيد على مالدى منافسيه فى تستريا ويرغنديه وكانت فرنسا فى التاريخ الرومانى تسمى (غاله) وبعد سقوط الدوله الرومانيه تنازعت فرنسا قوى مختلفه فاصبحت سيثمانيه تابعه للفوط الغربيين وأصبح الاقليم الذى يحده نهر اللوار شمالا إلى جبال البرانس جنوبا دوقيه مستقله هي اکتينايا إلى جانب اقليم بروفانس فى شرق سيثمانيه واطليم يرجانديا بشرق نهر الرون ، أما شمال نهر السوار حتى المانيا الحاليه فكانت مملكه تسمى مملكه الفرنجه الميروفنجيه وقد كان الفرنجه الذين غزوا غاله فى أواخر القرن الخامس الميلادى من أعظم القبائل الجرمانية قوه وأكثرها شهره فى العصور الوسطى وكانت المملكه التى أقاموها هناك المملكه الجرمانية الوحيدة القويه التى كتب لها البقاء فى الغرب الأوروبى واعتنق الفرنجه المسيحيه الكاثوليكيه وأقاموا حلفا مع الكنسيه الغربيه واسهموا كثيرا فى صنع التاريخ الأوروبى فى العصور الوسطى لاسيما فى عهد شارل مارتل وابنه بنين القصير وحفيده شارلمان حين انتقلت السلطه فى منتصف القرن الثامن الميلادى إلى أسرة جديدة فى شكل رؤساء البلاد فى اواستريليسا ، ذلك انه فى الوقت الذى كانت الدوله الميروفنجيه تنحدر إلى الزوال وتعيش الحقبه الأخيره فى عمرها ويتعاطم نفوذ رؤساء البلاد (شارل مارتل) وتشتد مطامعهم للانفراء بالسلطه فى دولة الفرنجه عبر المسلمون إلى شبه الجزيره اليبيرييه فى اوائل القرن الثامن الميلادى ليقتحموا اسبانيا وليقضوا على مملكه الفوط الغربيين فى ظل ظروف الصراع والاختلاف التى مرت بها دولة الفرنجه كان المسلمين بقيادة موسى بن نصير بطرقون جبال البرت ويعبرونها إلى بلاد الفرنجه ويتحينون للوثوب عليها

ومن المؤكد أى قرار التوقف العسكرى اتاح لدولة الفرنجة أن تعى أبعاد الطموح الإسلامى فى غزو القارة الاوربية وأن تدرس كافة الإحتمالات للمواجهة الحتمية مع هذه الحشود الإسلامية المنتصرة ، وإلحساس الفرنجة بالخطر الإسلامى فإنه لم يمضى عام واحد على عودة موسى بن نصير إلى المشرق (٧١٤/٩٥م) حتى قام فى واستراليا أكبر الأقاليم فى المملكة الفرنجية من أسرة هرستال Herstal بتوحيد أجزاء الدولة المبعثرة ، فبعد أن كان يسمى محافظ القصر Mairesdu palais اراد ان يتخذ له لقب ملك وسارع إلى إرسال سفراءه إلى روما يسأل البابا زكريا اليس من حق الشخص الذي بيده السلطة الحقيقية أن يكون له لقب ملك ؛ فأجاب البابا من حق الرجل الذي بيده السلطة الحقيقية أن يكون له لقب ملك وهكذا بدعم من الكنيسة أمراء الإقطاع استطاع محافظ القصر أن يكون هو الملك والرجل الناقد والشخصية الاقوى فى بلاد الفرنجه ، فأجتمع على أثر ذلك مجلس النبلاء وقرر أن يمنح بيان لـقـد ملك وأن يرسمه القديس يونيفاس ، لهذا المنصب وأصبح ملكا جديدا للفرنجه ، وهكذا قدر لبيان الملك الجديد أن يصنع سياسة العلاقات العربية الفرنجية وذلك لمجابهة المد الإسلامى الذي بلغ مداه فى مطلع القرن الثامن الميلادى . وإذا كان بيان بعد موته عام ٧١٤م قد ترك فراغا فى السلطة بسبب اختيار حفيده لوراثة الملك لاسيما أن «بيبين» استمر يحكم البلاد مدة تقرب من سبعة وعشرين عاما (٦٨٨-٧١٤م) ثم خلفه ابنه غير الشرعى الذي عزف فيما بعد باسم شارل مارتل أو المطرقة Martel بعد صراع مرير وحروب أهلية استمرت سنوات فى بداية عهده لكنه تمكن من حسم الأزمة لمصلحته وأصبح الرجل القوي فى مملكة الفرنجة حيث صارت له السلطة المطلقة على كل ولاياتها بعد أن أخضع اوستراليا وتستريا خضوع تماما . وقد كان توليه السلطة نقطة تحول خطيرة فى الحروب المقدسة التى خاضتها أوروبا ضد اعدائها المسلمين واستمد جانب كبير من شهرة شارل مارتل إلى ماحققه من نجاح تجاه المسلمين فى جنوب المملكة الفرنجية . اضافة إلى أنه أعاد حدود المملكة الفرنجية إلى ماكانت عليه قديما واهتم بنشر المسيحية بين قبائل المانيا الوثنية ونشر القانون وضرب بيد من حديد على كل محاولات الفتنة الداخلية

ورتب الأمور في الاقاليم الجنوبية لاسيما في برجنديا ، وأخضع دوق اكويتين ووجه شارل مارتل جانبا هاما من جهوده لجنوب المملكة المجاورة للأندلس .

وهكذا فإن مجيء شارل إلى السلطة في تلك الظروف كان حدثا غير عادي في تاريخ العلاقات بين اسبانيا الإسلامية وبين الدولة الفرنجية وفي ذلك الوقت كانت قرطبه عاصمة الأمويين ماضية في بناء عظمتها ورفيها كأحد عواصم الدنيا الهامة في ذلك الوقت وأيضا قد تجاوزت الدولتان دولة الفرنجة الكارولنجيين ودولة الأمويين الأندلسية على جانبي جبال البرية (البرانس) بما كانت تمثله كل منهما من زعامة سياسية وعسكرية ودينية وماكانت تنفذه كل منها بمسؤولياتهما تجاه شعبيها وأمنها وقيمها الدينية والروحية وكان لا بد من حدوث احتكاك بينها وسواء جرى ذلك الاحتكاك عنيفا واتخذ اسلوب الصراع الدموي أو جرى في اطار سلمي دبلوماسي أو اطار حضاري وفكري أو اطار اقتصادي مادي وبعبارة أخرى كان لا بد أن يحدث احتكاك بين الدولتين وتجرى صلات بينهما بحكم تجاوزهما من ناحية واختلاف قيمهما الدينية والسياسية من ناحية أخرى ولهذا جرى الصراع بينهما رهيبا وعنيفا تمثل في صورة معركة بلاط الشهداء . ذلك لأنه لولا وجود شارل على رأس السلطة لما كان من المستطاع مجيء بيبيان وابنه شارل . ذلك لأن عرب الأندلس لم توقف مسيرتهم قرارات الخلافة فضلا عن الظموح الإسلامي الكبير في اجتياز ذلك الحاجز الجبلي ذي الممرات الضيقة والتوغل في الأراضي الكبيرة Grande Lerre كان هو الهدف الأسمى حاملين قرآنتهم ومقدمين عقيدتهم الإسلامية إلى تلك الشعوب الوثنية التي لم تكن قد تعمقت لديها العقيدة المسيحية لاسيما أن الغارة الإسلامية القوية والعنيفة التي قام بها عنبة بن سحيم الكلبي في نواحي فرنسا كلها واستيلاؤه على إقليم بوجونيا ، الذي هو جزء من امبراطورية الفرنجة قد ألقى الرعب في معظم الدوقيات الجنوبية والوسطي وشعرت امبراطورية الفرنجة أنها أمام خطر داهم لا بد من أن يكتسح امبراطورية الفرنجة كلها وبدأ واضحا أن الحملة القادمة ستكون حملة حاسمة في تقرير مصير الامبراطورية المترامية الأطراف وهو أن المسلمين لا بد لهم من أن يواصلوا فتح باقي أنحاء

امبراطورية الفرنجة ومواصلة الزحف نحو الشمال وهكذا كانت هذه الانتصارات الإسلامية العظيمة والزحف السريع والقوي لعنسه الكلبي سببا في أن يتحالف أبناء الشمال الأوروبي تحت قيادة شارل مارتل وأن يتناسى الدوق اودو دوق اكويتانيه عداء القديم لشارل مارتل وأبيه الملك بتان وبدأ يعملان سويا بمنصرة بعضالجيش الأوربية الأخرى لوقف المد الإسلامي الزاحف من الجنوب لإحتواء هذه الأقاليم في دولة الإسلام الكبرى وذلك بكل ماوصلت إليه أيديهما من وسائل الحرب وأسلحة مختلفة .

ولقد كان ظهور شارل مارتل كرجل قوي في مملكة الفرنجة خلفا لأبيه غير الشرعي يسيان في نفس العام الذي تحرك فيه السمح بن مالك الخولاني (١٠٠/٧٢٠م) .

وقد شهدت الجبهة الأندلسية الداخلية فترة من عدم الاستقرار السياسي ذلك لأن السياسة الداخلية لم تكن لتأخذ الطابع الإسلامي السليم ، ووقف تعاليم الشريعة الإسلامية الغراء حيث تغلبت العصبية القبلية العنيفة على تصرف هؤلاء الحكام تغلبت حيث صارت العلاقات بين الولاة العرب تشهد بعض الصراعات وكان عرب الأندلس يتهزون الفرصة بين الحين والآخر لإقامة واحد منهم واليا عربي على الأندلس لكن فترة الولاية لم تكن تتجاوز إلا شهور قلائل ثم تعود الأمور إلى طبيعتها عندما ترسل الخلافة الأموية في دمشق «الحكومة المركزية» بتولية والى جديد من قلبها .

لكن قادة الجيش وأهل الرأي والحل والعقد وأعيان البلاد في الأندلس استطاعوا هذه المرة أن يفرضوا لأول مرة فيما اختاروة واليا على الأندلس على الخلافة الأموية وأن تفرض الاختيار لأن هذا الاسم لم يكن غريبا أو غير مسموعا لدى رجال الخلافة في دمشق ، ذلك هو عبد الرحمن الغافقي الذي استطاع في السابق تغيير مجريات الأحداث وفي عام ٧٢٠م أن يتفادي الاحتلال العسكري بين القوتين المتصارعتين خلف جبال البرانس (المسلمون والفرنجة) وأن يعيد تنظيم الانسحاب وانقاذ البقية الباقية من الجيش الذي فقدأندهوالتراجع بهم إلى ناربونه

ومنها إلى الأندلس ومن هنا تردد اسمه بعد استشهاد السمح ولم يمكث في الولاية إلا شهرا واحدا لكن لم يمضي زمن طويل حتى يكون هذا الاسم أكثر الأسماء شهرة في تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي وأن يرتبط اسمه بأشهر معركة في التاريخ الإسلامي ، كان لها أثر كبير في حركة المد الإسلامي في القارة الأوروبية سلبيا وتأثيرا لسنوات قادمة .